التصوف
والحكم الخالدة

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقي سرور

من مأثورات الكلم فى تاريخ النقد العربى ، كلمة العلامة الجاحظ ، التى قسم فيها اللغة العربية ، إلى نثر ، ونظم ، وقرآن .

لأن القرآن الكريم، نسق من البيان لامثيل له ولاشبيه ، وضرب من الإعجاز البلاغى والمعنوى ، لا يدانيه ولا يقاربه كلم بشرى . نظما كان أو نثرا ومن الحق أيضا ومن الصدق ، أن نضيف إلى أقسام اللغة العربية الفنية ، قسما رابعا . هو التصوف .

فالتصوف الإسلامى ، بنثره ونظمه ، قد تميز منذ يومه الأول ، بمذاق ولون وخواص بيانية وروحية ، جعلته نسج وحده ، وطابع نفسه .

اقرأ ما شئت فى الآداب العالمية ، وتناول ما أحببت من التراث الفكرى للإنسانية ، فستجد أدبا وفنا وذوقا وعلما وفلسفة .

ولكنك لن تجد أبدا ، تلك الراحة النفسية ، والإشراقة الروحية ، والطمأنينة القلبية ، وذلك الشعور والنور الآسر الساحر الذى يترقرق ويتدفق فيمس أعماق وجدانك ، ويثير أعصى أحاسيسك ، ويربط ما بينك وبين عوالم خفية ، وإمدادات وإشراقات علوية ، ومعارف وإلهامات من المكنون المضنون به .

لن تجد البعث الحى ، المتوثب الثائر ، للحس والنفس والجوارح ، للروح والقلب والعواطف ، لكل المدخرات الخفية والجلية . لن تجد كل هذا إلا فى الكلم الصوفى ، وما يوحى به المعنى الصوفى . وتلك آية التصوف الساطعة وحجته الخالدة .

لقد ارتبط التصوف بالله ، واقتات بحبه ، وعاش تحت أنواره وإلهامه ، فتدفق فيه تيار من الأفق الأعلى ، وترقرق بين سطوره ولحونه شيء يذاق بالقلب والروح ، ويفهم بالحس والشعور ، وتعجز وسائلنا المادية ، وفنوننا القلبية ، عن التعبير عنه أو الدنو منه .

وجولة بالقلب أو بالعين فى التراث الصوفى ، تضع أيدينا على السر الخفى ، ستجد لكل كلمة صوفية أجنحة وروحا وحياة ، إنها قطعة نابضة من قلب عابد ، وخفقة محلقة من شعور ساجد ، وشحنة ملهمة من روح طاهر .

إنه كلم عليه من رضاء الله شعاع وسناء ، وفيه من نفحات القدس إشراق وبهاء ، إنه كلم يمشى تحت ظلال النبوة ، ويتعلق برسالتها ، ويولى وجهه شطر التنزيل والذكر الحكيم ، ليأخذ من نبعه ، ومن وحيه ما ينفع الناس ، وما يمكث فى القلوب ، وما يضيء للإنسانية طريقها الصاعد إلى الله .

* * *

ومن خوالد الأدب الصوفى ، ومن روائعه العالية ، التى مشت على جبين الشمس ، وعاشت فى قلوب المؤمنين ، وغدت لعشاق البيان والحكمة ، على اختلاف ألوانهم وصورهم ، إماما وهاديا ، ومثلا عاليا ، ونبعا صافيا ، ومعراجا ملهما ، حكم ابن عطاء الله السكندرى . تلك الحكم التى يقول عنها المستشرق « فولر » إنها أحدثت فى الأدب العربى ، ما أحدثه كتاب المثنوى « لجلال الدين الرومى » فى الأدب الفارسى .. المثنوى الذى لقب فى التاريخ « بقرآن فارس » .

كان ابن عطاء الله لسان الطريقة الشاذلية الأكبر ، وعالمها وكاتبها ، بل عالم التصوف وكاتبه ، الحبيب إلى كل قلب ، القريب من كل روح ، العظيم فى كل عين ، الحجة الملهم لكل مستشرف للهدى واليقين .

تقرأ حكمه ، فيكاد يكلمه الساحر ينقل تقوى قلبه إلى قلبك ، وتحس بخشوعه يسرى فى حسك ، وترى الله سبحانه تحيط بك أنواره وعطاياه وآياته ، وتلمس محبته لخلقه ينبوعا متدفقا ، هو سر الحياة ، وسر كل شيء فى الملك والملكوت .

وليس سر ابن عطاء الله فى سحر حكمه ، وبلاغة كلمه فحسب ، بل فى تلك السور الصوفية العالية التى رسمها بقلبه وقلمه وروحه وحسه ، فجلى فيها التصوف وقربه وبينه فى يسر وبساطة ودقة وروعة للناس كافة .

وكما أغرم بسور ابن عطاء الله الصوفية الرائعة ، وحكمه الربانية العالية ،

جماهير الصوفية ، يتدارسونها ويحفظونها ، ويتعشقون إلهامها ويرجون هداها ، أقبل عليها أعلام الإسلام وأئمة التصوف ، بالشرح والتعقيب ، والبيان والتفصيل يفتقون أكمامها ، ويطلقون شعاعها ، ويكشفون القناع عن إعجازها وأسرارها ، فوضعوا لها الشروح العديدة ، والموسوعات الضخمة ، التى أضافت إلى التراث الصوفى أمجادا ، وأضفت عليه أنوارا .

شرحها ابن عباد ، وابن عجيبة ، وابن زروق ، وغيرهم من الأعلام الهداة .

ولا تزال الحكم إلى يومنا تلهم وتدفع بالعقول والأقلام إلى نبعها وروضها .

ولا تزال بذاتها وبشروحها ، قمة من قمم التصوف المضيئة الحبيبة ، التى لا يصعد إليها ولا يرمقها إلا أصحاب الأجنحة المتفوقة الجبارة .

* * *

ثم جاء أخى الأستاذ « السيد محمد عيد الشافعى » ، وقد من الله عليه بفيوضاته ، فكانت تلك الفيوضات الربانية ، هى الشرح الموفق الجديد ، للحكم العطائية ، فى أسلوب مبين ، وعرض أمين ، وشرح دقيق ، وتصوير رشيق ، لكل مافى الحكم من حكمة وإيمان وجلال وإلهام ، ولكل مافى التصوف من روح وريحان ، ومعرفة وحب ويقين ، وذوق وشوق واحتراق وفناء وبقاء .

وحسب الأستاذ « السيد محمد عيد » أن يجرى فى شرحه ، وفى فيوضاته ، مع الأعلام السابقين الملهمين ، وحسبه فوق ذلك أن يكون أقرب الينا ، وإلى احيائنا أسلوبا وبياناً .

وقد رأى الأستاذ « السيد محمد عيد » أن يتقدم بكتابه ، ليسهم به فى النهضة الصوفية الكبرى التى تقودها مشيخة الطرق الصوفية ، وعلى رأسها سماحة الأستاذ السيد « محمد محمود علوان » وليكون حلقة من تلك الحلقات التى تعتزم المشيخة أن تقدمها للعالم الصوفى ، كدرجات ودعامات يصعد عليها إلى عزته وقوته ، ومعارفه وفتوحاته .

ومن ثم برز هذا الكتاب النافع المبارك إلى النور ، طليعة لوثبة ، وإيذانا بفجر جديد :

ولست أجد تقدمة له ، أعز وأعلى ، من قوله تعالى : « كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » : « وهدوا إلى الطيب من القول . وهدوا إلى صراط الحميد » .(١)

---

(١) من مقدمة سيادته لكتاب ـ الفيوضات الربانية ـ